الحياة الروحية في بابل:

الإنسان، المصير، الزمن

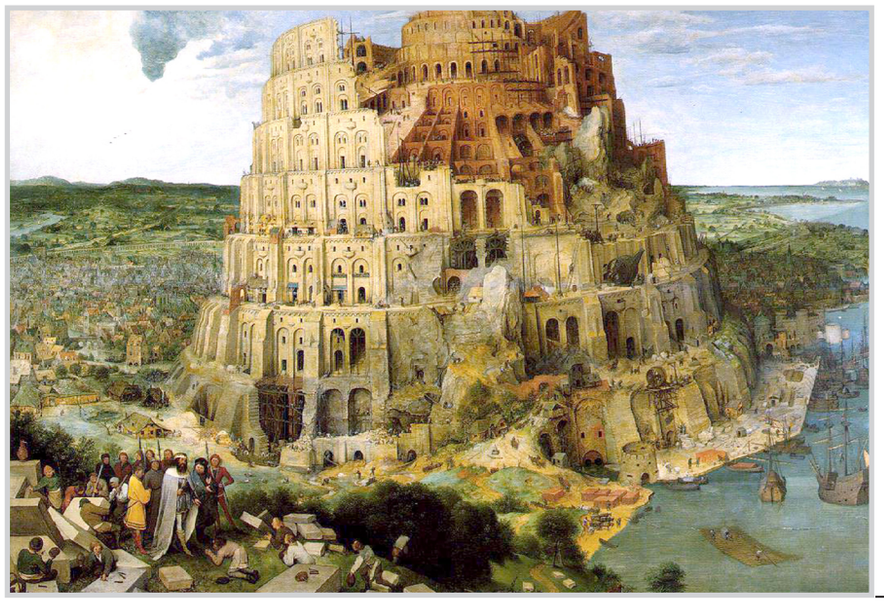

أهمية هذا الكتاب، رغم ترجمته قبل عقد ونصف تقريبا، وأصدرته دار المدى، تكمن في راهنية المعلومات التي يضمها حول حضارة بابل وإنسانها. ومن يربط الطقوس القديمة، والمعتقدات، والحكم، مع الحاضر سوف يجد مشتركات كثيرة. تمتد الفترة الزمنية التي درست في هذا الكتاب خلال الألف الثاني ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد من حياة البابليين، واعتمدت على النصوص القديمة لحضارة وادي الرافدين.

شاكر الأنباري

كيف كان البابليون يفهمون الزمن؟ هل تبدل تصورهم عن الزمن خلال ألفي سنة من عمر الحضارة البابلية؟ هل كان يوجد اختلاف في مفهوم الزمن لدى الأفراد أنفسهم؟ قسم البابليون السنة إلى ٣٦٠ يوماً، موزعة على ١٢ شهراً قمرياً، يتطابق اليوم مع الاعتدال الربيعي. ويبدأ اليوم في بابل مع غروب الشمس. ويقسم كل من الليل والنهار إلى ثلاثة أجزاء، كل جزء يقسم بدوره إلى جزءين، ويطلق الفلكيون على هذه الوحدة الزمنية مصطلح (الساعة المزدوجة)، لكن هل عرف البابليون (ساعة حقيقية) أخرى؟ إذا كان الجواب بنعم فهل كانت شائعة الاستعمال؟ مما لا شك فيه أن البابليين عرفوا الساعة المائية، وهي عبارة عن إناء ذي ثقب صغير يتسرب منه الماء، ويعتقد أنهم عرفوا الساعة الشمسية أيضاً، غير أن استخدام تلك الأدوات كان مقتصراً على فئة ضيقة من الناس، هم علماء الفلك والرياضيات، أما الغالبية فيستخدمون الوحدات الطبيعية لقياس الزمن، السنة، اليوم، الساعة المزدوجة، فالزمن المجرد لم يكن مدركاً في القصور البابلية، ويمكن القول بشكل عام أن المفردات اللغوية المتعلقة بالظواهر الزمنية تمتاز بطابعها الملموس وبشكل يدعو إلى الدهشة.

وحافظ الحكم الملكي في بلاد الرافدين، وحتى مرحلة متأخرة، على طابعه القدسي، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج. فعلى السمات الذاتية للملك وحسناته وسيئاته واصطلاحاته كان يتوقف كل شيء، في الوقت نفسه ساعد ذلك على لم شمل الشعب حول العاهل الحاكم، وربط النشاط اليومي للرعية بحياة حاكمها. أما الماضي، كزمن، فيقسمه البابليون إلى ثلاثة أقسام، الزمن التاريخي والزمن المحيطي والزمن الأسطوري، والزمن التاريخي هو الماضي الموثق نسبياً، سمع عنه البشر أو قرأوه عياناً، والزمن المحيطي، هو الواقع على مشارف المحيط، زمن المعجزات الخارقة وغير المألوفة، زمن أبطال الملاحم والحضارات. في حين أن الزمن الأسطوري هو زمن الآلهة، لم يكن للزمن بحد ذاته أهمية لدى سكان بلاد الرافدين، فكرة المصير البعد عن موقف الإنسان المعاصر من الملكية؟ من المعروف أن السمات الذاتية للإنسان تتجسد في الثروة التي في حوزته، ففيها يكمن نجاحه وسعادته، وفقدانه لهذه الأشياء يعني الموت، أو يعني نقيصة من اكتماله الذاتي. وفي النصوص التاريخية المكرسة للحملات العسكرية تكون التفاصيل حول الغنائم أكثر غنى في الحالات التي لاذ فيها العدو بالفرار للتأكيد على فداحة الخسارة وجسامة الأضرار التي لحقت نقوش الأضرحة الفردية والجماعية، كما هو حال الأضرحة الرومانية، إن المعضلة المرافقة للنصوص هي أن الكثير منها لم تكن موجهة إلى الجيل المعاصر، خاصة النصوص الملكية، بل إلى الأجيال القادمة والآلهة، أجل كانت ثمة كتابات موجهة للمعاصرين أيضاً، لكن الجهة الأساسية التي خاطبتها تلك النصوص هي الآلهة والأحفاد. وكان لهذا الأمر أثره الكبير على نبرة ومحتوى هذه النصوص، بحيث أنها اكتست طابعاً ملحمياً خاصاً، وتبدو الوثائق التشريعية والحياتية البابلية من الناحية العملية قليلة الجدوى لأنها تعكس أخلاقيات الدوائر العليا، إنها تشكل مادة ضرورية هي والنصوص الملكية عند رسم صورة الحياة الواقعية للمجتمع.

علينا أن نتصور مدى الأهمية التي يقدمها (أدب الحكمة) البابلي لفهم الحياة الروحية لهذا الشعب، وهو يشتمل على النصائح الأخلاقية ومجموعات الأمثال والمواعظ والتراتيل والحوارات العلمية، من خلال قصيدة (اللاهوتي البابلي) المكتوبة في الألف الأول قبل الميلاد، ويعتقد أن مؤلفها شخصية متعلمة ينتمي إلى الفئة المتنورة التي تنحدر من الطبقات الوسطى، نجد أن موضوعة المعذب البريء كانت شائعة في النصوص الشعرية، الإنسان يتذمر من المحن التي ألمت به، مؤكداً أنه يجهل الذنوب التي اقترفها، فالخطيئة حتمية لدى كل البشر، وما على الإنسان المخطئ إلا تقديم الصلوات والاعترافات للإله كي يغفر له ذنوبه، وتتساءل القصيدة عن سبب انتصار الظالمين والأشرار، بينما تكون الخيبة والإحباط من نصيب الصالحين الطيبين.

كان تأثير مؤلفات بلاد الرافدين حول عذاب الأبرياء على الأدب التوراتي وخاصة كتاب سفر أيوب، يشكل موضوعاً في غاية التعقيد، ويبدو أن الأدب البابلي أعطى الدفعة الأولى لمؤلف (العهد القديم)، وقد ساعدت الظروف الاجتماعية التي سادت السبي وفي المرحلة التي تلت، على تركيز اهتمام اليهود نحو مثل هذه القضية. أما حكمة البابليين فلم تكتسب طابعاً منطقياً مجرداً، وظلت بشخصية الهارب، بعد أن جرد من ممتلكاته. ولم تكن النتائج المترتبة على نقل الغنائم من الدول والمدن المحتلة إلى بلاد الرافدين، مقتصرة على الجوانب الاقتصادية الملموسة، فالثروة المفقودة، أو المستولى عليها، تؤثر على مصير المدينة ومستقبل الملك والبلاد أيما تأثير.

ولعل المعتقدات الأخلاقية في الوعي البابلي، هي الأكثر تجانساً مقارنة مما هي عليه عند الإنسان المعاصر، على الرغم من أنها كانت متشابكة- مترابطة مع المعتقدات الدينية والتشريعية والاجتماعية، وهي بمجموعها تكون تصورات موحدة عن الوجود البشري، لم تكن عند البابليين عادة تخليد الموتى بواسطة النقوش التذكارية في الأضرحة، الأمر الذي جعل من هذا المصدر الحيوي فاقداً للفائدة، إن العدد الكبير من التراتيل والأدعية والتعاويذ والنصوص الملكية، يمكن أن تعوض جزئياً عن المعلومات التي تقدمها نقوش الأضرحة. لكن من الصعب الجزم إن كانت هذه النصوص تعبيرا بالفعل عن آراء الناس البسطاء، فالمعلومات المستخلصة منها أقل أهمية من المعلومات التي تقدمها هي التي تكمن في أساس التصور البابلي عن الحياة وعن كل ما يحدث فيها. لكل شيء مصيره في هذا الكون، للآلهة والبشر، ومصير الإله يقرر دوره وعظمته ووقعه في مجمع الآلهة، ويتضح أن المصير يتقرر في لحظة نشوء الظاهرة: لقد تقرر مصير المدينة عند تأسيسها، ومصير الإنسان عند ولادته، ولا ترد في النصوص إشارات لذلك، لكن تتوفر معطيات لصالح هذه الفكرة، ويبدو أن قرارات الآلهة وكلمتهم والمصير المقرر من قبلهم تكون (نهائية).

وتقرير المصير للإنسان عند ولادته لا بد أن يؤدي إلى تقرير مستقبله بشكل تام، ولا بد من أن يقود في النهاية، إلى القدرية المطلقة.

وبعيداً عن المصير والزمن، كرس للملكية الخاصة في بلاد الرافدين دراسات كثيرة، لما لها من تأثير في حياة الفرد وسلوكه اليومي وعلاقته بالآخرين، إذ كانت معياراً للموقع الاجتماعي وصحة الفرد وعلاقته بالآلهة، غير أن الجانب النفساني)، في موضوع الملكية، لم ينل من الباحثين الاهتمام المطلوب، إلى أي مدى بلغ الإحساس بالملكية، وهل كان ثمة شيء مميز وبعيد كل الزمنية مصطلح (الساعة المزدوجة)، لكن هل عرف البابليون (ساعة حقيقية) أخرى؟ إذا كان الجواب بنعم فهل كانت شائعة الاستعمال؟ مما لا شك فيه أن البابليين عرفوا الساعة المائية، وهي عبارة عن إناء ذي ثقب صغير يتسرب منه الماء، ويعتقد أنهم عرفوا الساعة الشمسية أيضاً، غير أن استخدام تلك الأدوات كان مقتصراً على فئة ضيقة من الناس، هم علماء الفلك والرياضيات، أما الغالبية فيستخدمون الوحدات الطبيعية لقياس الزمن، السنة، اليوم، الساعة المزدوجة، فالزمن المجرد لم يكن مدركاً في القصور البابلية، ويمكن القول بشكل عام أن المفردات اللغوية المتعلقة بالظواهر الزمنية تمتاز بطابعها الملموس وبشكل يدعو إلى الدهشة.

وحافظ الحكم الملكي في بلاد الرافدين، وحتى مرحلة متأخرة، على طابعه القدسي، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج. فعلى السمات الذاتية للملك وحسناته وسيئاته واصطلاحاته كان يتوقف كل شيء، في الوقت نفسه ساعد ذلك على لم شمل الشعب حول العاهل الحاكم، وربط النشاط اليومي للرعية بحياة حاكمها. أما الماضي، كزمن، فيقسمه البابليون إلى ثلاثة أقسام، الزمن التاريخي والزمن المحيطي والزمن الأسطوري، والزمن التاريخي هو الماضي الموثق نسبياً، سمع عنه البشر أو قرأوه عياناً، والزمن المحيطي، هو الواقع على مشارف المحيط، زمن المعجزات الخارقة وغير المألوفة، زمن أبطال الملاحم والحضارات. في حين أن الزمن الأسطوري هو زمن الآلهة، لم يكن للزمن بحد ذاته أهمية لدى سكان بلاد الرافدين، فكرة المصير البعد عن موقف الإنسان المعاصر من الملكية؟ من المعروف أن السمات الذاتية للإنسان تتجسد في الثروة التي في حوزته، ففيها يكمن نجاحه وسعادته، وفقدانه لهذه الأشياء يعني الموت، أو يعني نقيصة من اكتماله الذاتي. وفي النصوص التاريخية المكرسة للحملات العسكرية تكون التفاصيل حول الغنائم أكثر غنى في الحالات التي لاذ فيها العدو بالفرار للتأكيد على فداحة الخسارة وجسامة الأضرار التي لحقت نقوش الأضرحة الفردية والجماعية، كما هو حال الأضرحة الرومانية، إن المعضلة المرافقة للنصوص هي أن الكثير منها لم تكن موجهة إلى الجيل المعاصر، خاصة النصوص الملكية، بل إلى الأجيال القادمة والآلهة، أجل كانت ثمة كتابات موجهة للمعاصرين أيضاً، لكن الجهة الأساسية التي خاطبتها تلك النصوص هي الآلهة والأحفاد. وكان لهذا الأمر أثره الكبير على نبرة ومحتوى هذه النصوص، بحيث أنها اكتست طابعاً ملحمياً خاصاً، وتبدو الوثائق التشريعية والحياتية البابلية من الناحية العملية قليلة الجدوى لأنها تعكس أخلاقيات الدوائر العليا، إنها تشكل مادة ضرورية هي والنصوص الملكية عند رسم صورة الحياة الواقعية للمجتمع.

علينا أن نتصور مدى الأهمية التي يقدمها (أدب الحكمة) البابلي لفهم الحياة الروحية لهذا الشعب، وهو يشتمل على النصائح الأخلاقية ومجموعات الأمثال والمواعظ والتراتيل والحوارات العلمية، من خلال قصيدة (اللاهوتي البابلي) المكتوبة في الألف الأول قبل الميلاد، ويعتقد أن مؤلفها شخصية متعلمة ينتمي إلى الفئة المتنورة التي تنحدر من الطبقات الوسطى، نجد أن موضوعة المعذب البريء كانت شائعة في النصوص الشعرية، الإنسان يتذمر من المحن التي ألمت به، مؤكداً أنه يجهل الذنوب التي اقترفها، فالخطيئة حتمية لدى كل البشر، وما على الإنسان المخطئ إلا تقديم الصلوات والاعترافات للإله كي يغفر له ذنوبه، وتتساءل القصيدة عن سبب انتصار الظالمين والأشرار، بينما تكون الخيبة والإحباط من نصيب الصالحين الطيبين.

كان تأثير مؤلفات بلاد الرافدين حول عذاب الأبرياء على الأدب التوراتي وخاصة كتاب سفر أيوب، يشكل موضوعاً في غاية التعقيد، ويبدو أن الأدب البابلي أعطى الدفعة الأولى لمؤلف (العهد القديم)، وقد ساعدت الظروف الاجتماعية التي سادت السبي وفي المرحلة التي تلت، على تركيز اهتمام اليهود نحو مثل هذه القضية. أما حكمة البابليين فلم تكتسب طابعاً منطقياً مجرداً، وظلت حتى آخر أيامها في مجرى البناء الأسطوري التقليدي الملموس، وهذا لا يعني أن البابليين لم يفكروا جدياً بالقضايا الحياتية العميقة، أو أن حكمتهم كانت سطحية بدائية غير ناضجة، نحن هنا إزاء نمط آخر من التفكير.

لم يكن التعليم مقتصراً على النخبة، رغم الإشكالات المتعلقة بعملية تعلم الكتابة، حيث دلت التقنيات أن الألواح الطينية كانت موجودة في الكثير من البيوت المتواضعة، وتتوفر معطيات على أن التعليم شمل النساء أيضاً، وكان يوجد الكثير من كتبة الشوارع الذين يقومون بصياغة الوثائق والعناوين والرسائل للأميين لذلك من الخطأ عزل الحضارة (الكتابية) عن الحضارة (الشعبية) في بلاد الرافدين والعناوين واعتبار الآثار الكتابية القديمة مقتصرة على النخبة السياسية والاقتصادية فقط.

أما مسألة الموت والموقف منه فلها دور بالغ الأهمية في بلورة منظومة القيم وتحديد سلوك الفرد، كان الفرد بمثابة الوحدة الأساسية للمجتمع وليس العائلة أو القبيلة، وارتباطاً بذلك احتل السؤال عن الموت ومصير الإنسان بعد الموت مركز الصدارة في اهتمامات البابليين. إن المعتقدات البابلية عن العالم السفلي غير سارة، هنا يتلظى الموت بدون أي أمل في البعث أو الولادة الجديدة. ولم تتبلور فكرة الحساب بوضوح شيء واحد ينتظر الصالحين والأشرار على حد سواء، الكآبة والخمول، وتكون الحالة أفضل نسبياً لمن خلف أولاداً بعده وهي أسوأ لمن لم يسلم جثمانه للدفن، وآفاق الوجود تنحصر بين المهد واللحد، لذلك تتركز كل الجهود لإطالة المسافة بينهما قدر المستطاع، والموت الذي هو نقيض الحياة، يصبح في الوقت نفسه نقيض الخير، الشر هو الموت والخير هو الحياة.

إن الآلهة البابلية لم تخص البشر بالعمل والموت فقط إنما بالأفراح والمسرات، فكانت المعابد والأسواق محطات للاحتفالات والرقص وشرب الخمرة التي كانت مباحة اجتماعياً للفرد. وكان لدى البابليين كثير من المصطلحات للتعبير عن الخطيئة، الجريمة، الإثم، الذنب، ومفهوم الخطيئة كان يعني الدنس الطقوسي الذي يكفر عنه بالمراسيم والابتهالات والصلوات. والخطيئة عند البابلي لا تخلو من طابع مادي، نوع من النجاسة الخاصة التي يمكن غسلها ونقلها أو تحويلها من حاملها إلى أي شيء آخر.

وتشكل الآثام والخطايا ذات الطابع الديني حيزاً كبيراً من حياة الفرد البابلي. وهناك قائمة طويلة بتلك الخطايا كأكل الأغذية المحرمة والتلامس المباشر مع شخص غير طاهر من الناحية الطقوسية والمحاولات الخائبة للاحتكاك بعالم الآلهة الخاص... الخ، ثم تليها التجاوزات الاجتماعية التي تحمل طابعاً أدبياً معنوياً: شهادة الزور وإراقة الدماء وعدم احترام الوالدين والفجور والغش والعنف والنميمة والوشاية، أما القيم الخيرة عند الفرد البابلي فهي الصحة والعمر المديد، بينما يحتل الأطفال، الورثة، الموقع التالي في درجات القيم، وثمن سكان بلاد الرافدين تثميناً استثنائياً عالياً الملك والثروة.

إن الثروة تفتح الطريق إلى الرفاه والنعيم، وهي إلى جانب خدمة الآلهة من نصيب الإنسان، الثروة لم تكن وسيلة فقط بل غاية، وكانت الحكمة من القيم الروحية الأخرى التي ينظر إليها البابليون باحترام. إنها تعني الخبرة الدنيوية والعلم والمعرفة، كما مجد البابليون الحقيقة والإنصاف والعدالة والوفاء بالعهد، غير أنهم لم يمجدوا القوة والجسارة والروح العسكرية، وغالباً ما يدور الكلام عن الوداعة والمسالمة وعدم التهور ورباطة الجأش، ويمكن من حيث الظاهر وصف الأخلاق البابلية ونظرتهم إلى العالم بالتفاؤل وحب الحياة، ولكن هذا التفاؤل الظاهري كان مصحوباً بخلل خفي، ووعي ديني متزمت شيئاً ما.

المؤلف: كليشكوف
ترجمة: عدنان عاكف حمودي
الناشر: دار المدى للثقافة والنشر
١٧٦/١٩٩٥ صفحة

الملكية الفكرية والبحث العلمي

د. محمد حسين حبيب
جامعة بابل

عادة ما تعرف الحقوق الملكية الفكرية بانها (تلك الحقوق التي ترد على كل عمل إبداعي مبتكر أنتجه العقل البشري في حقول الآداب والفنون والعلوم والصناعة والتجارة وهي حقوق استئثار لمالكها الاستئثار بها قبل الغير مدة من الزمن لقاء الجهد الإبداعي والمبتكر الذي مكنه من التوصل الى هذا الحق).

وبحسب الأقسام المتعارف عليها لحقوق الملكية الفكرية بتنوع تخصصاتها وتفرعاتها العديدة كحق الملكية الصناعية والتجارية وحق الملكية الأدبية والتي تتضمن هذه الأخيرة حق المصنفات الأدبية العائدة الى أصحابها/مؤلفيها والمتفرعة هي الأخرى الى تخصصات أدبية كالرواية والشعر والقصة القصيرة فضلا عن المؤلفات الأخرى من الكتب و الدراسات والبحوث المنشورة والمعترف رسميا بجهات نشرها والتي تتعرض للقراءة والاقتباس من قبل الكثيرين من القراء والباحثين بحسب طبيعة الاقتباس ونوعه اذا كان اقتباسا مباشرا ام غير مباشر مع الاحتفاظ بحق الإشارة البحثية المنهجية الى المصدر الأصل الذي استل منه الباحث ذلك الاقتباس، وبدون تلك الإشارة في هامش الورقة يوصف هذا الاقتباس بالسطو على جهد الآخرين وعدم الاعتراف بحقوقهم وبذلك نجد أنفسنا أمام قضية سرقة يحاسب عليها القانون.

لكن الذي حصل بعد الانفجار المعرفي في عصرنا هذا والهيمنة الالكترونية العملاقة التي اخذت منه الكثير حتى اللحظة لدرجة انها جعلت من جملة (العالم بين يديك) التي كنا نرددها مجازا تعبيريا لم تعد كذلك، بل تحولت هذه الجملة إلى واقع حال نعيش لحظاته أولا بأول عبر استخدامنا (الانترنت) الذي بفضله تحول عالمنا الكبير إلى مجرد شاشة زرقاء نقبض عليها في غرفتنا الصغيرة ونتحكم في التنقل خلالها من مكان إلى آخر مخترقين بذلك كل نظريات الزمان والمكان ومتجاوزين كل وسائل الاتصالات القديمة.. ونحن على قناعة تامة بأن الانترنت أسبغ على عالمنا صفة (الرقمية) في كل شيء وأصبحت هي الوسيلة المهيمنة على شبكة الاتصالات بين أفراد الكون قاطبة، ممن ارتبطوا بعلاقات (خاصة وعامة) كلا بحسب اهتمامه، فأصبح الجميع يعرفون كل شيء عن بعضهم ولكن دونما لقاء مادي حقيقي.. فعلا لقد احدث الانترنت - وبحسب تنظيرات ماك لوهان في مجال علم الاتصالات وتحديدا في كتابه فهم الإعلام – احدث في سبعينيات القرن الماضي حالة توحيد للجهاز العصبي لدى الإنسانية جمعاء فيقول: (كان خطر هتلر او ستالين بمثابة تهديد خارجي، اما خطر التكنولوجيا الالكترونية فهو في كونها تمثل تهديدا داخليا مبطنا...وعلى أي حال لم يحن الوقت لاقتراح التدبير المناسب لذلك مادام التهديد غير شاخص وغير محدد).

والآن وبعد ان أصبح هذا التهديد شاخصا ومحددا لما يزل الفراغ قائما بعدم (وجود تشريعات قانونية تحكم البيئة الرقمية بصريح النص) لتردع العدد غير القليل من المسيئين للفضاء الشبكي ك (الجواسيس والاباحيين وأصحاب الافكار المنحرفة الهدامة والقراصنة ولصوص الأموال).. وغيرهم.

تتعرض البحوث العلمية والمقالات المنشورة على الانترنت (المؤلفات الرقمية) الى السرقة مثلما كانت تتعرض قبلها المنشورات الورقية.. جريمة السطو ذاتها لان مصداقية الباحث العلمية حتمية التوفر في الحالتين واذا ما اختفت هذه المصداقية يكون الباحث عندها لصا مع سبق الإصرار والترصد بتعبير الحقوقيين .

ويمكننا إجمال عدد من النقاط التي نرى جدية الإشارة اليها تحوطا لهذا الخلل المعرفي العلمي منها : وعي الباحث بالتعامل مع الانترنت في العالم العربي بمعنى الإيمان بأهداف الانترنت العلمية الثقافية واستخداماته البعيدة عن أغراض الدردشة والعلاقات المؤقتة والعاب الكيمز والتسليات الأخرى وهي كثيرة، كذلك تجدر الإشارة الى إشكالية وعي (الأستاذ الجامعي) قبل الطالب الباحث/ مابين التوجيه والمنع، لان جهل التعامل مع الانترنت اذا ما غاب عند الأول فسيحرم الثاني منه بل ويمنع بالإكراه ويحرم من هذا الفضاء العلمي الشبكي المهم الذي وجد لخدمة البحث العلمي والثقافة لا غير.

هذه السرقات تجعل من الكثيرين يتخوفون من نشر ابحاثهم ومقالاتهم عبر الشبكة الالكترونية خوفا من تعرضها للسطو والسرقة .. كذلك ومن خلال تتبعنا واهتمامنا بهذا الموضوع لخطورته وحساسيته على مستقبل بحوثنا العلمية الجامعية وعلاقة ذلك بمصداقية الباحث التي يجب فلم نعثر او نتفق على نص ما توجيهي او تعليمي يساعد الباحث على طريقة اقتباس واضحة ومنهجه قانونيا وعلميا حول كيفية الإشارة الى المصدر ..الى الآن مجرد اجتهادات لا أكثر.. الامر الذي يؤدي بالتالي الى الارتباك في تقديم الأدلة التي تدين الباحث/ السارق مثل حذف او غياب الموقع او رفعه من الشبكة لأسباب كثيرة وهذا معمول به فعلا، هذا الى جانب عدم توفر التقنيات اللازمة في المؤسسات البحثية وفي قاعات المناقشات لرسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه في جامعاتنا العراقية.

في ضوء ما تقدم نرى ضرورة نشر ثقافة رقمية في الوسط الجامعي وتأسيس المنتديات والجمعيات الخاصة بذلك الهدف العلمي المهم، والمهم الذي يراه كاتب هذه السطور هو : إدخال مادة الثقافة الرقمية ضمن المناهج المقررة في الدراسات الجامعية العراقية في كافة تخصصاتها ومراحلها الدراسية .

قصة الايام الاخيرة في حياة البير كامو ..في كتاب جديد ..

هل كان كامو يستحق نيل جائزة نوبل للآداب ؟..

ترجمة: عدوية الهلالي

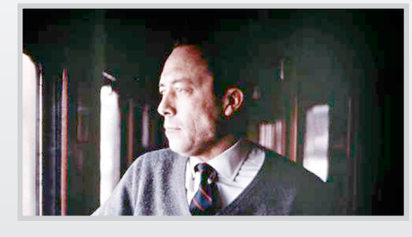

كشف كتاب صدر مؤخراعن الروائي الفرنسي البير كامو قصة الايام الاخيرة في حياته وكيف كان ينظر اليه معاصروه سيما بعد نيله جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٧ التي اوصلته الى ذروة متاعبه لمحاصرته بغيرة وحقد وسخرية البعض..وبعد استلامه الجائزة بأقل من ثلاث سنوات، توفي كامو مؤلف (الغريب) في حادث سير في الرابع من كانون الثاني عام ١٩٦٠.

احيط نيل كامولجائزة نوبل بالكثير من اللغط لدرجة ان سارتر ايضا علق على الموضوع بشكل ساخر في الوقت الذي ضمت فيه الصحف والمجلات تعليقات اكثر قسوة على اعتبار ان كامو كان في الرابعة والاربعين من عمره وكان بذلك الكاتب الاكثر شبابا بين الفائزين بجائزة نوبل، ففي مجلة كومبا قيل بان البلدان الصغيرة –بالاشارة الى لجنة نوبل السويدية –تعجب بالمفكرين الصغار البعيدين عن الصدامات.. الف الكاتب جوزيه لينزيني عدة كتب عن البير كامو لكنه خصص هذه المرة كتابا عن الايام الاخيرة في حياة كاتبه (المقدس)، لأنه اهتم بايضاح صورة كاتب ادخلته اعماله وجائزة نوبل في سجل الخالدين دون ان يحصل على تاييد وترحيب انداده. يمزج جوزيه لينزني في كتابه الجديد (الايام الاخيرة من حياة البير كامو) قليلا من الخيال مع الاحداث التاريخية الواقعية مشيرا الى معاناة مؤلف(اسطورة سيزيف) من صمته ازاء سوء سلوك والدته ومواجهه في باريس بسبب ذلك.. كان كامو قد قال ذات مرة : "تعلمت من تجربتي انك لاتتلقى الرصاصة غالبا من الجهة التي تتوقعها..وافادتني هذه التجربة خصوصا في العاصمة الصاخبة باريس حيث لايوجد احد يمتلك الصراحة الكافية او الجرأة ليتصرف بحرية. في شتائه الاخير، كان كامو ثائرا ومتحمسا لقضية الجزائر وكان لموقفه ذاك تاثير كبير على علاقته باصدقائه وزملائه من الكتاب والمفكرين..ومن المقاطع المؤثرة في الكتاب ماذكره ليزيني عن احتمال تجنب كامو للحادث الذي اودى بحياته لو استقل القطار كما كان ينوي..وضم الكتاب ايضا شيئا عن ولع كامو بالتمثيل فقد سئل ذات مرة عمن يستحق ان يمنحه رضاه الاكبرفقال :الممثل لأنه الروح المجسدة للعرض.

تلويحة المدى

أقنعة الحداثة المُخادِعة

شاكر لعيبي

ما زال مفهوم الحداثة، بإطاره العريض، موضعاً عربياً للمساءلة ، بل الالتباس القادم من تداخل واختلاط فكرة (التحديث modernisation) التقنيّ، وأحياناً الشكلاني، بسياق ومرجعيات (الحداثة modernité). مصطلحان يتناوبان الأدوار في الاستخدام العربيّ ويثيران جملة من الإشكاليات الفرعية، خاصة عندما يعتبر دخول التقنيات الجديدة رديفاً للحداثة، أي من دون الأساس السياقيّ والمفهوميّ والتاريخيّ للمفهوم. لن يختلف اثنان على أن هذا السياق أوربيّ بالدرجة الأولى، الأمر الذي يضيف المزيد من المشكلات. لعل هناك ثلاثة حلول لهذه الإشكالية: أما أن الثقافة العربية تستخدم المفهوم بطريقة محلية خاصة، نازعة عنه أساساته ومصادر انبثاقه، وأما أنها تحوِّره تحويراً جذرياً لتكييفه مع حاجاتها، وأما أنها تتناوله تقريباً مثلما صدر في الفكر الأوربيّ. في الحالة الأولى نقع غالبا على نفي للمفهوم نفسه واقتراب من التحديث الشكلي والتجديد الذي لا يمسّ البنى المفهومية، وفي الثانية نقع على حالة تعريب ذي مصادر أيديولوجية للمفهوم يتضمن شيئا، قليلاً أو كثيراً، من التلفيقية مثل جميع المفاهيم المستعارة من ثقافة ما ثم المطبَّقة على ثقافة أخرى، وفي الحالة التقريبية الثالثة نفتقد الإجماع على تحديدٍ ممكن للمفهوم بحيث أننا نستخدمه بالمعنى الذي فهمه كلٌ منا انطلاقاً من معارفه وقراءاته في اللغات الأجنبية. وحتى في هذه الحالة الأخيرة قد نجد اختلافاً في الدرجات والظلال بين معنى الحداثة في الثقافة الفرنسية ومثيلتها الأنجلوسكسونية.

يمكن إيجاد شواهد، بعضها دامغ لهذه الحلول. فمنذ مثلاً أوائل الرحلات العربية، وليكن عمل محمد بن عبد الوهاب الغساني "رحلة الوزير في افتكاك الأسير" ١٦٩٠ – ١٦٩١م، نلتقي بادئ ذي بدء باندهاش كبير من البون بين نسق الحياة (الحديثة) في إسبانيا المشاطئة والحياة (التقليدية) العربية الإسلامية. ثمة هنا شعور بالغربة والتغرُّب عن العالم الحديث المُشاهَد لكي يقع التركيز في المقام الأوحد على التحديثات الخارجية، البرانية التي مسّتْ جميع مرافق الحياة الأوربية، من دون امتلاك وعي بالتحوّلات البنيوية والفلسفية والصراعات العنيفة أحيانا التي كانت السبب المؤدي إلى نمط اجتماعيّ وثقافيّ حديث، أي مناهض للنزعات التقليدية، فكراً ونشاطاً. في جميع الرحلاتَ اللاحقة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يطرأ على بال الرحالة أن ما يشاهدونه هو، ببساطة، نتيجة لقطيعة فكرية مع الماضي (رحلة الطهطاوي أو رحلة إدريس بن الوزير العمراوي "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" سنة ١٨٦٠م إلى فرنسا).

على الصعيد التشكيلي توقف أولئك المسافرون إلى فرنسا وإنكلترا أمام الفن التشكيلي الأوربي، رسماً نحتاً. وقد واجهوه في ساحات ومتاحف القارة بذهول ما بعده من ذهول لجهة طبيعته (الواقعية) التي لم يعرفوا مثيلاً لها ولم يكن يوجد لديهم مثال يضاهيها.

لم يشهد العالم العربي إلا في لحظات تنويرية جنينية قصيرة تحولاتٌ راديكالية وسجال جذريّ بإمكانه أن يتفتق عن جديد أساسي في الوعي والحياة. فكرة الانفصال العارف عن التقاليد الراسخة غير محبّذة على ما يبدو في الثقافة العربية. ومن بين هذه اللحظات الثمينة أفكار بعض شيوخ التنوير في مديح فنّيْ التصوير والنحت (كالإمام محمد عبده). إننا الآن على أعتاب القرن العشرين، وفيه ظلت الإستعارة من الآخر، وتكييف ما تقع استعاراته، متلبسةً بادعاء أخذ الصالح ونبذ الطالح وفق معايير غامضة إذا لم تكن مشحونة بقيم الماضي التي تسعى للحاق بالحاضر بطريقة توليفية صعبة. منذ نهاية القرن التاسع عشر برزت المساعي التي نعرفها، في مصر ولبنان بشكل خاص ولسببين تاريخيين مختلفين، في تكوين فنون تشكيلية (مُحدثة) تهجر، من بين أشياء أخرى، فن المنمنمة التشخيصيّ صوب فن منظوريّ (واقعيّ) بقيَ محكوماً بتقليد مباشر للنموذج الأوربيّ (داود قرم وحبيب سرور وفيليب موراني في لبنان، محمد ناجي ومحمود سعيد ومحمود مختار ويوسف كامل في مصر).

وفي سياق التحولات البطيئة في العالم العربي انتشرت مدارس وأكاديميات الفنون الجميلة (مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٠٨، مدرسة الفنون الجميلة في تونس١٩٢٢، معهد الفنون الجميلة في العراق ١٩٣٦، الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة ١٩٤٣، مرسوم لم يتحقق بتأسيس معهد للفنون في سورية عام ١٩٤٤)، وكان ما تنتجه من أعمال فنية متأخر كثيراً عن مدارس المشروع الحداثيّ الأوربي المُدْرك لأصوله وأسبابه. ففي الوقت الذي تأسست فيه للتو أول مدرسة للفنون في مصر عام ١٩٠٨ كان بيكاسو يرسم لوحته (آنسات أفينيون) معلناً الاتجاه التكعيبي، وفي الوقت الذي كان بول كليه يزور تونس والقيروان عشية الحرب العالمية الأولى ويستخرج من فنون العمارة والنسيج المحليين دروساً جمالية جديدة، حديثة لم تكن هناك ممارسة تشكيلية في جلّ البلاد التونسية. منذ نهاية الحرب الأولى وحتى سنوات الخمسينيات لم يكن موضوع (الحداثة) مطروحاً أصلاً في الفن التشكيلي، لكن هاجس (التجديد) و(العصريّ) الغائمين وحدهما كانا يشغلان النخب المتنوِّرة. ولذلك طبعا أسباب موضوعية لا يتوجب التقليل من شأنها، أواخر سنوات الستينيات برز وعيٌ توليفيٌ تشكيليٌ أكثر تعقيداً يستهدف تعريب المُستعار، عبر العودة إلى الرموز المحلية والتاريخية العربية واستخدام الحرف العربي وأقواس العمارة الإسلامية (جواد سليم وشاكر حسن السعيد مثلاً)، بل نفي فن الخط العربي لصالح لوحة القماش المسندية. كان هذا الوعي التشكيليّ الجديد يتقدّم، في الحقيقة، بالتوازي مع حركات التحرّر من الاستعمار ومن الوعي السياسي القومي الذي نعرف أنه استعار أيضاً بعضاً من أهمّ حججه من الوعي القومي الأوربي. نحن هنا أمام الحل الثاني المقترح لإشكالية الحداثة في السياق العربي، وهذه لم تنتج وتعيد أنتاج المأزق على الصعيد المعرفي والجمالي فحسب لكنها أنجزت أعمالاً تشكيلية مثيرة، بل طرحتْ بشكل غير مباشر الأسئلة المريرة عن مقادير المساهمة العربية في حَركة الحداثة العالمية ومستوى الوعي بالمفهوم، رغم أن استخدام المفردة على كل لسان، في هذا الوقت عينه، لم يكن موصولاً بدرس فلسفي وتاريخي متفق عليه. منذ سنوات السبعينيات اللاحقة ومع تسارع وتيرة التعليم والترجمة والرغبة بالتدقيق من جهة، ومع تفشي المشكلات وفشل الأيديولوجيات وصعود المجتمع الاستهلاكي بطبعته العربية من جهة أخرى، لدينا الانطباع أن مفهوم الحداثة صار (بداهة) مُعمَّمة ثقافياً، كأن الإجماع واقع عليها من دون حدوث ذلك بالفعل. لتصير مفارقة الحداثة مثالاً على الالتباس والاستخدام المرتبك للمصطلحات ومعانيها، حيث قلة قليلة من النخب من يدقق في المفهوم دوماً حسب مرجعياته وقراءاته، وكثرة كثيرة تستخدمه بطريقة مشوَّشة، وقد استخدم على نطاق واسع رديفاً للتحديث التقنيّ، يستوي بذلك إدخال الأجهزة الإلكترونية في الحياة اليومية وإدخال مفهوم التنصيبة instalation في الفن التشكيلي.